الاسترضائية كطقس عبور على الفضاء السكني -دراسة أنثروبولوجية لمنطقة عين الصفراء، ولاية النعامة-

Tranquility as a transit weather on residential space -An anthropological
study of the Ain Al-Safra region-

محمد أمين بن ويس*، جامعة محمد خيضر بسكرة، mohammedamin.benouis@univ-
biskra.dz

شوقي قاسمي، جامعة محمد خيضر بسكرة، chaouki.gasmi@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2022/02/04 تاريخ القبول: 2022/05/28 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

قد قمنا بدراسة أنثروبولوجية حول المجتمع المحلي لمنطقة العين الصفراء وذلك في حقل الطقوس وبالخصوص الطقوس الاسترضائية واستعمالها في بناء الفضاء السكني، مبرزين في هذه الدراسة مجموعة من القراءات حول الفضاء المسكون وعلاقته مع ممارسة الطقوس، بعد استقراء للميدان، وباعتبار أن الدراسات الأنثروبولوجية تعتمد على الميدان (المشاركة المباشرة)، فقد قمنا بتحديد مراحل ممارسة الطقوس في بناء الفضاء السكني، بالاستناد الى منهج الاثنوغرافيا الذي يصور الواقع كما هو وذلك باعتماد على قوة الوصف الامبريقي.

كما أن هذه الدراسة على الرغم من بساطتها إلا أنها قد تكون عمل ثميناً يزكي ويكسي إضافة نوعية للدراسات في حقل علم الاجتماع وأنثروبولوجيا الفضاءات الحضرية، إن هذه الدراسة تحمل في طيات معارفها كلمات ومعاني تقتصر على أهل المنطقة المدروسة (مقولات وكلمات محلية)، وقد ركزنا على اظهارها ليتينين ما هو مخفي في الواقع الامبريقي للمجتمع المحلي واعطائه تجانس مع هذا النوع من الطقوس.

الكلمات المفتاحية: استرضاء، طقوس، فضاء، سكن، ممارسة.

Abstract:

We have conducted an anthropological study about the local community in the Ain al-Safra area in the field of rituals, especially the rituals of appeasement and their use in building the residential space, highlighting in this study a group of readings about the inhabited space and its relationship with the practice of rituals, and after extrapolating the field and considering that anthropological studies depend on the field (participation direct), we have identified the stages of ritual practice in the construction of residential space , based on the ethnography approach, which depicts the reality as it is, with the strength of the empirical description

And that this study, despite its simplicity, may be a valuable work that praises and makes a qualitative addition to studies in the field of sociology and anthropology Urban spaces, this study carries within its knowledge words and meanings that are limited to the people of the studied area (categories and local words), and it focused on its flourishing to reveal what is hidden in the empirical reality of the local community.

Keywords: Appear, Ritual, Haunted Space, Exercise.

1. مقدمة:

ان المجتمعات على اختلاف أطرافها تحمل في تعايشها مجموعة من الطقوس التي لازالت ليومنا هذا تشكل معيارا للربط الاجتماعي من الفرد إلى الأسرة والمجتمع. وعلى الرغم من الدراسات التي اكتسحت في حقل علم الاجتماع بالعموم والأنثروبولوجيا بالخصوص حيزا كبيرا في دراسة الواقع الامبريقي من ناحية الطقوسية، وكما قال غاستون باشلار "Gaston Bachelard" (إن الفصل الاجتماعي لا يوجد في الواقع وإنما يتم نزعها من الواقع الامبريقي ثم يجب بناؤه والتحقق منه) (bachelard, 1971)

فإن الفضاء السكاني بما يحمله من تفاعلات اجتماعية وخاصة في إطارها الطقوسي فإن تلك الممارسات للطقوس الاسترضائية التي يمارسها أفراد المجتمع وذلك للمحافظة على تلك الكينونة الترابطية بين الفضاء المسكون وأفراد الأسرة كتوافق تفاعلي، وبعد المجتمع المحلي لمدينة عين الصّفاء والجنوب الغربي غني بهذا النوع من الطقوس. فإن هذا العمل الأنثروبولوجي بما يكتسبه من دراسة ميدانية وما يقتضيه بالملاحظة عن قرب(ملاحظة بالمشاركة)، وحتى بلورة صورة الواقع المسكوت عنه بالكتابة الإثنوغرافية والإثنولوجية لنطرح تساؤلا محوريًا يكون جوابه مفصلاً

فيما تبقى من هذا العمل الذي أعدّه بسيطاً ومهمّاً في الوقت نفسه، وعلى هذا الأساس: فيم تتمثّل طقوس الاسترضاء على هذا الفضاء السكّني؟

وبعدّ الإنسان في ارتباط دائم بالمكان حتّى أصبحنا نربط حياتنا بالمكان أو الفضاء السكّني ونقول دائماً* قل أين تسكن وكيف تسكن. أقل لك من أنت* وعلى الرّغم من أنّ الإنسان سواء سكن في كوخ أم في قصر أم في حيّ شعبيّ أم مسكن حضاريّ. فإنّ مأواه يحمل دلالة ومعن فدراسة كلّ من الفضاء المسكون والهيمنة الإيديولوجية للطقوس ترسم ملامح التّعايش في تملك الفضاءات المسكونة.

1- علاقة الفضاء السكّني مع ممارسات طقوس:

ترز العلاقة عن جملة من المفاهيم التعريفية للفضاء السكّني والطّمس من منظور مفكّرين قد سايروا المصطلحين في دراساتهم حول المجتمعات وعلاقتهم بتملك الفضاء المسكون ومن محتوى ذلك فإنّه على حسب ما جاء به.

1-1 الفضاء المسكون:

قبل الحديث والتّعرف عن كُتب لمفهوم الفضاء السكّني لابدّ علينا بالضرّورة التّطرّق لتوضيح مفهوم "الفضاء" الذي يحمل معان كثيرة ومرادفات متعدّدة، فهو المكان، المجال، الحيز... والفضاء هو كلّ شيء ولا شيء في آن واحد على حسب تعبير لادريت ريموند "Laudret- Raymond" حيث يعدّ: "الفضاء إن شئنا كلّ شيء ولا شيء في الوقت نفسه أو بتعبير آخر شيء قليل و شيء كثير معاً" (raymond, 1984) وهذه المفارقة تجد تفسيرها بوضوح في كون جميع الكائنات في علاقة مجالية محضة (...). إنّ هذا الفضاء الذي هو لا شيء يصبح كلّ شيء لأنّه من طبيعة وجودية ولأنّنا نعثر عليه في كلّ الأنحاء...، وكلّما تحدّثنا عن الفضاء نجد أنفسنا نتحدّث عن الوجود وعن علاقة التّواجد، وهذا تفسير واضح على أهمّية الفضاء في حياتنا لأنّه متواجد فيها باستمرار، كما لا يمكن دراسة الفضاء بمعزل عن البيئة الاجتماعيّة.

فقد نفى شاطو "Château" وجود نظرية الفضاء دون أن تكون هذه الأخيرة جزء مندمجا ضمن نظرية الاجتماعيّة شاملة " (chateau, 1981) بمعنى لا يمكن النّظر إلى الفضاء على أنّه إنتاج مادي بمعزل عن العناصر الاجتماعيّة والمعنويّة التي تدخل في تكوينه. كما أنّ الفضاء لا يوجد إلّا بما يحتويه فهو بناء منظّم بما يتضمّنه من أحداث، وأشخاص، وأفعال، واتّصالات، وتعارف، وممارسات..الخ، فكلّ هذه المجتمعات تشكّل لنا الفضاء، ومنه الفضاء ظاهرة اجتماعية كليّة

تضمّ مختلف العناصر، والعلاقات، والبيئة ووضعيّة الكائنات وحرّياتها، ممارساتها اليوميّة وطقوسها وغيرها.

إنّ البناء الفضاء السكّني في المجتمعات مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقداسة "الدار" وهيمنة حرمة المكان فيه. إذ يعتبر تايلون "Tylon" الحرمة على أنّها تقديس وحش (tyl991) ويعبر كذلك رابابورت "Rappaport" في تعريفه للفضاء المسكون حد تعبيره "يعتبر المنزل على أنه علبة وظيفتها الرئيسية هي الإيواء وحماية ساكنها ومحتوياتها" (chateau, 1981)، وإذا حسبنا الفضاء المسكون في الجزائر عامّة وعين الصّفاء خاصّة من الفضاءات المغاربيّة العربيّة المزوجة بالطابع البربري والحاملة للطابع الإسلامي فإنّه يخضع لشيّفات وسلوكيات معيّنة من بينها إصدار صوت للإعلان عن الدّخول كدلالة على دخول زائر أو ضيف وذلك بالتّصفير أو التّحنحة أو الضّرب على الباب والابتعاد قليلاً.

أمّا كلمة ومصطلح "دار" من الفعل استدار وأحاط فهي توجي لأوّل وهلة بفكرة الإحاطة بسياج وتعني حدود الفضاء المسكون وتعني المسكن أو المنزل، أما مارجي "Marcy" فيعرف الفضاء المسكون على أنه دار تحيط بها جدران أو بنايات أو خيم بدو وحالة متجاورة الواحدة إلى جانب الأخرى في شكل دوائر وتعرف باسم مجموعة هذه الفضاءات "بالدوار" في الجنوب الغربي بالجزائر (chateau, 1981).

وكان أول محيط أو فضاء سكّنيّ في مرحلة الإسلام هو بيت رسول الله محمّد بن عبد الله الّذي بناه في المدينة للسكّن فيه ويكون قبلة لاجتماع الصّحابة الكرام، إنّ الفضاء المسكون في الطّابع الإسلاميّ له هندسية مبسّطة في إظهار واجهته سواء كان أهل هذا الفضاء أغنياء أم فقراء فالأمر لا يختلف في شكل الواجهة المعماريّة للبيت، فأسوار البيت تحمل في هندستها باباً فقط أمّا الجدران تجدها مغلقة لا تحمل التّوافذ في الواجهة المطلّة على الأخر (الجار)، إلّا بضع نوافذ صغيرة توجد فوق الباب، وتحظى السّاحة الموجودة في المنزل بفضاء منزليّ كأهمّ جزء لما يحمله من متنقّس لأهل المنزل أو هذا الفضاء برمته.

إنّ الفضاء السكّنيّ الإسلاميّ المغاربيّ يتّبع هرميّة محددة، فمخطّطه يحتوي على ساحة داخلية تعرف بأنّها مركز المنزل، وقبل أن نصل لهذه السّاحة لابدّ أن نمرّ بالعتبة الّتي تحظى بقداسة في هذا الفضاء السكّنيّ إذ لها مكانة خاصّة فيه، فما يحيط بهذه السّاحة مجموعة من الغرف حيث تحمل كلّ غرفة مكانة ودورا في هرميّة المنزل أو هذا الفضاء السكّنيّ بشكل فضاءات داخل هذه الهرميّة المحدّدة.

ويرى بعض الباحثين على أنّ المنزل أو الفضاء السكّنيّ الّذي يحتوي على مساحة مركزيّة

إلى عصر بناء الفضاء السكّني الرّومانيّ والنّدي ورثه هو الآخر عن حضارة ما بين النّهريين (الحضارة البابلية) وهذا النمط المعماري للفضاء السكّني على حسب "لافونتان" La fontaine: "إن هذا النمط المشتق من الفيلا الرومانية لا ينتمي إلى العالم العربي الإسلامي ولكن يعطي للحياة الاجتماعية الإسلامية إطارها المثالي، إذ انه يكيّف مع مفهوم الإيواء للأسرة على السيرة التي يحيط بها المسلم حياته الخاصة" (يومدين، سليمان، 2007).

وبالتالي تتبلور هذه الحياة في الطّقوس التي تستعمل في بناء هذا الفضاء السكّني وكذلك الحرمة والقداسة التي تحظى بها مكانة المنزل أو بمفهوم آخر "الدار"

وكما أسلفنا الذّكر في الفكرة السابقة فإنّ الفنّ المعماريّ العربيّ البربريّ الإسلاميّ في فكرة صيانة الدّار وحمايتها مرتبطة حسب المنطقة المدروسة فمثلا (عين الصّفراء) منطقة الجنوب الغربيّ غنيّة بالطّقوس المرتبطة بالفضاء السكّنيّ، فحرمة الدّار لها مكانة لسكّان هذا الفضاء المسكون ودرجة علاقته مع مجموعة من الممارسات الطّقوسية في الفضاء، لا يحقّ لأيّ فرد أو إنسان انتهاك دخول الفضاء المسكون ما دام غير مدعوّ أو ساكن فيه، فمن يتجاوز عتبة المجال السكّنيّ يتعرّض للعقوبة، وبعد كلّ الأوصاف حول البيت المغاربيّ والبربريّ تؤكّد على أهميّة الفضاءات الوسطية ودورها في إثبات مكانة الفضاء السكّنيّ.

1-2 طّقوس الاسترضاء:

يقول المثل العربيّ "البيت بلا عتبة كالمرأة العارية" فالفضاء المسكون في المنطقة المدروسة يفصل بينه وبين الفضاء الخارجيّ وكذلك الفضاءات التي تحتوي عليها الدّار هي مجموعة من العتبات والأحواش فمثل هذه الفضاءات قد صمّمت لتحتوي أكثر من أسرة واحدة في آن واحد أي "كلّ عائلة لها كانونها الخاصّ بها تحت سقف فضاء واحد" حتّى ولو كان لهذا الفضاء مدخل باب واحد فلمثل هذه الفضاءات وظائف وانتقال وتوزيع أدوارها يعطي نوعا من الحميمة داخل هذا الفضاء المسكون وتحمل نوعا من القوّة في الوسط المعاش بكثرة، وتعدّد الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الفضاء الواحد فهي على حسب رأي "فيرول Ferrol" مكتملة ومعزّزة للفضاء المسكون (boughali, 1974)، وعلى هذا الأساس فإنّ الطّقوس الاسترضائية تجدها بشكل كبير في هذا النوع من التّمط المعيشيّ لثقافة تملك الفضاء السكّنيّ والعتبة ومحيط الدّار أو المنزل مكان تركز ممارسة هذه الطّقوس بعدها تمثّل مكانة حسّاسة وقويّة لدى أفراد الأسرة في هذا المجتمع المحليّ، فالطّقوس بالنّسبة لمستعملها تمثل تلك الممارسات الغريبة والمسكوت عنها التي تهدف إلى التّقرب

والمحافظة على الطّاقة الإيجابية بين الفرد البشريّ والكائنات أو الأرواح النّابعة من العالم الرّوحانيّ الميتافيزيقيّ بعدّهم موجودين في عالمنا المعيشيّ كما أنّهم موجودون في عالم الإنسان ومسيطرّون على حيويّة الإنسان وراحته أو العكس، وإذا حسبنا الطّقوس هي مجموعة من الدّلالات والرّموز فإنّنا نعود للتعبير عنها حيث إنّها مبنية على عدد كبير من أساطير التّأسيس .

وإذا عدنا إلى ما ينظر إليه "نور الدين طوالي في تفسيره لطقوس" على أنّها تعبّر عن عادات وتقاليد مجتمع معين، فكما تعني كذلك أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبيّ " (طوالي، 1980)، هذا من نتيجة التّجربة المعاشة تجاه الطّقوس، وعلى حسب ما يراه " ليتش " من ناحية أخرى فإنّها سلوك يحمل رمزيّة ودلالة ومعنى في ممارسة أيّ نوع من الطّقوس التي تنعكس على الشّعائر الدّينية وممارستها في سياق عادات المجتمعات وتقاليدها (لزرقي، 2015) وإذا حسبنا هذه الطّقوس التي يعبّر عنها في الواقع الإمبيريقي لبناء الفضاء السّكّنيّ ولورتها على عادة من العادات التّقليديّة يرمز ويعبّر عنها بالطّقوس الاسترضائيّة وفقا لتملّك الفضاء المسكون الّذي يحمل شقّين أساسيين هما: الفضاء المسكون كشقّ كامل موجّه والفضاء الوسطيّ الممارس عليه بجسر توافقيّ بين المحيط الدّاخلي والخارجيّ للفضاء السّكّنيّ، فهذا النّوع من الطّقوس بعد تحليله وتفسيره يعدّ استنطاقا للكينونة الدّاتيّة للفرد السّاكن داخل الفضاء السّكّنيّ مع الرّوح المستوحاة من الدّين أو الخيال أو الأسطورة .

وإذا حسبنا دائما الطّقوس على أنّها مصطنعة من الإنسان (فريزر، 2014) "المرتبط بثقافته الشّعبيّة المعترف بها رمزيا فإنّ الإنسان بطابعه هو صانع للعادات كما تقول فوزية فطبيعته كإنسان تحتمّ عليه أن يقيم صرحا من العادات والمعتقدات، وهو يفعل ذلك ليرسي دعائم المجتمع " (دياب فوزية، 1980).

وهذه المعتقدات بالممارسة تتحوّل إلى طقوس ليبقى الفرد أبديا بها ومقدّرا قيمتها على أنّها تجوز أو لا تجوز أو في الواقع ما هو مستحبّ أو غير مستحبّ.

سواء حسبنا الطّقوس على أنّها خرافة أم ما شابه، إلّا أنّه لا يوجد مجتمع في وقتنا الحاليّ يخلو من المعتقد الخرافيّ أو الأنماط المتّصلة بالسلوك المرتبط بالتّفكير الخرافيّ، على الرّغم من التّطوّر في جميع الميادين فإنّ الطّقوس تبقى مسيطرة على تفكير من يمارسها، وكما قال "سمنر": "ففي سبيل التصارع من أجل البقاء وعن طريق تعاون الناس بعضهم مع بعض تتكون طرق الشّعبيّة وتنشأ بطريقة واعية وغير شعورية، وبمرور الزمن تبدو ثابتة وأصيلة وراسخة على الرّغم من أن أحدا لم يقصد حدوثها أو يتعمد تكوينها أو يخطط لها، أو يعرف عنها مسبقا" (دياب فوزية، 1980)، فهذا

النوع من الطقوس والرموز المرتبطة به ترتبط بالحماية داخل المجتمع وتعبّر عن معتقدات يمارسها الأشخاص وبدورهم ينتظرون منها الحماية لما يصيهم من الشّرور من عين الغير وحسداهم لهم، ويرى البعض في الطقوس الشعبية التابعة من المعتقد السائد بأنها القوة المحركة وراء كلّ الأفعال الاجتماعية التي يمارسها الفرد منفردا بنفسه أو مع الجماعة، حيث يرى أفراد الجماعة بأنهم ملزمون ويجدون أنفسهم مضطّرين إلى الأخذ بها أي أنّها تفرض نفسها على الكلّ حيث يظهر من خلال التّصوّرات أنّ الطقوس تمارس ضغطا شديدا على الفرد خاصّة في منطقة الجنوب الغربيّ من الجزائر كونها تعدّ إحدى الوسائل التي يوجّه بها الواقع المنقوص من فهم محدثات الفكر الميتافيزيقي لطبيعته الماورائيات، وحسب "السالموطي" يمكن تفسير الطقوس وممارساتها للمعتقدات وفهمها وتبريرها في ضوء طبيعة البناء والنظام الاجتماعي السائد داخل نفوس المجتمع المدرّوس " (طوالي، 1980)

فالطقوس بصفة عامّة تساعد الأفراد في الوصول إلى الوسائل الفاعلية التي تعينهم على التّحكّم في الفضاء المسكون وبيئة هذا الفضاء، والتّصرّف في مصيرهم، والاستعداد لمواجهة بعض الأحداث التي قد تطرأ على حياتهم، فالفرد يميل إلى المعتقد النّابع من ممارسة هذه الطقوس والإيمان بما تحتويه من تفسيرات للأحداث الطّبيعية لتنظيم حياته كما يرى "حسن رشيق" في تفكيكه للمصطلح "كنسق من الرموز المعبرة عن طبيعة المجتمع الفاعل له" فالترابط الوثيق بين الطقس كعادة والبناء الاجتماعي كفاعل تفتح مجال الصلة بين الطقوس والفضاء السكاني". (حسن، 2010)

العلاقة بينهما:

العلاقة بين الفضاء المسكون والطقوس الاسترضائية هي علاقة تكاملية معيارية إذ إنّها لا تخلو هذه الفضاءات المسكونة من هذه الأنواع الطقوسية وأبرزها الطقوس الاسترضائية، فالعلاقة تكمن من خلال شيئين أساسيين هما الفكر الواقعيّ مع الفكر الروحانيّ فنجد عدّة كلمات وعبارات معبّرة من خلال اللّغة واللّهجة المتداولة بقول "لازمك ترصيّ مالين الدار" ويقصد منه أنّه قبل دخول المسكن الجديد أو القديم وأنت جديد فيه لابدّ على الإنسان أن يأخذ برضى الأهل الروحانيين الملقّين "بمالين الدار" وما يدلّ على الاقتناع بمصداقية الأسبقية في تملك الفضاء من طرف الجانّ أو الأرواح الروحانية ويكون ذلك الاسترضاء بممارسة مجموعة من الطقوس التي تبنى عليها طقوس التّقرب والاسترضاء. للأرواح السّاكنة في المكان مجموعة من التّسميات من بينها "أحباب ربّي"، فاقتصار النّاس على أساس البقاء بأمان لابدّ من جلب العلاقة

مع الأرواح واستحضرها بتوافق العلاقة مع مجموعة طقوس تسهّل بلورة العيش الرّمزيّ بين البشر والأرواح الساكنة في الأرض، وذلك بتوظيف فكرة القبول والتّوافق مع قاطنة المكان من الأرواح في الدّار .

ومن هذا نستنتج أنّ العلاقة بين الفضاء السّكّني وطقوس الاسترضاء هي تكاملية لأنّ الفضاء المسكون يعبّر عن المكان الّذي يحمل جنسين مختلفين، والطّقوس الاسترضائية لها دور جسر التّودد والتّراضي بين الجنس البشريّ الدّاخل على الجنس الرّوحانيّ، فالفضاء السّكّني هو مقرّ ومستقرّ، أمّا الطّقوس الاسترضائية هي أداة تربط بين الأهل المالكين لهذا الفضاء وتمثّل الرّاعي الرّسيمي لتعارفهم واندماجهم تحت سلطة الوازع الطّقوسيّ وواقع الفضاء المسكون

2. مراحل تأسيس الفضاء السكّني وطقوس الاسترضاء الممارسة عليها:

إذا حاولنا الدخول إلى عالم الطقوس وفهمها على أنها مبنية على السحر في الممارسة والدين كعامل ايديولوجي كما يقول "فرايزر" في كتابه الغني عن التعريف "الغصن الذهبي" والذي فسر الطقوس على أنها مرتبطة بالسحر في أصلها العملي والدين (فريزر، 2014) فإنّه لو فسّرنا الطّقوس الّتي ترتبط بالفضاء السّكّني وتمارس عليه لا يمكن أن نصلها عن الإنسان وعلاقته مع الطّبيعة بفرعيها المادّي والرّوحّي السّماويّ وعلاقة هذا الإنسان مع ثقافته المحليّة الّتي لا تنفصل عن العادات والتّقاليد المؤسّسة لذلك الفضاء السّكّني وإذا حاولنا تفسير ذلك لابّد علينا أن نبرز ممارسات تلك الطّقوس داخل الفضاء المسكون عبر المرور بمراحل التأسيس لهذا الفضاء قبل الفضاء المؤسّس له وبعده وداخله، فلهذه الطّقوس أشكال متعدّدة على حسب كلّ مرحلة من هذا التأسيس للمجال السّكّني وتملك الفضاء في هذا المجال، فإنّ منطقة عين الصّفراء تحمل كما هائلا من هذه الطّقوس الّتي تعبّر عن موروث ثقافيّ في هذا المجال الحضريّ على الرّغم من درجة التّحضّر لأهل المنطقة إلّا أنّها محافظة على هذه الأنواع من الطّقوس وهيمنتها على ذلك الإنسان والمتعارف عليها والمعبر عنها بشكل غير رسميّ (سرية التامة) والمتمثلة في مايلي:

1-2: طقوس وممارسات على مرحلة ما قبل التأسيس للفضاء السكّني:

إنّ المعتقد الشّعبيّ لسكّان المغرب العربيّ عامّة ومنطقة الجنوب الغربيّ (عين الصّفراء) خاصّة يعطون أهميّة وثيقة وكبيرة بمعتقد الروح أو الجان على أنّه الممتلك الأوّل للفضاء السّكّني أو المكان فتسمّعهم يقولون "لبلاذ بمالها" و"شايه بيه ملين لبلاذ" وكذلك طلب الرضية من مالين لبلاذ "فتراهم بهذه العبارات يدلّون على قداسة السكّان الرّوحانيين للمنطقة وإعطائهم بدلالة "مل

تعني صاحب" على أنهم السكّان والمالكين الأصليين للأرض، وقبل الشّروع في بناء هذا الفضاء السكّني فإنّ كبار السنّ والشيوخ يطلبون منك بعبارة صريحة "حراز قبال ما تبني ديك لبلاد مسكونة" دليل على أنّ هذا المكان مسكون بالجنّ وهم السّياقون قبل صاحب الأرض للسكّن في تلك الرقعة الجغرافية، ولربط الثقة والتّصريح بين الرّوح السّاكنة وصاحب مشروع البناء لابدّ عليه القيام بمجموعة من الممارسات والطّقوس تكون ربط صلة بينهما.

أ. طقوس وممارسات الملح والبخور على تراب الفضاء السكّني:

ما قبل تأسيس الفضاء المسكون يأخذ الفرد المؤسس للمكان قليلا من تراب تلك الأرض (حفنة من التراب) ويتم خلطها بالماء وقليلا من الملح (ملح الحي) ويتمّ تبخيرها بمجموعة من البخور المتعارف عليه وتحمل كلّ منها دلالة أنثروبولوجيّة، وقراءة مجموعة من الآيات القرآنيّة وبعدها رفع الأذان على تلك الحفنة من التراب ولمّا تمّ يتمّ لّفها في قطعة قماش خضراء معروفة " بالصّرة " وتبييتها لمُدّة ثلاثة إلى سبعة أيام عند صاحب البناء أو في بيت أسرته، وهذا دلالة على رمزيّة العدد التّواتري والقداسة التي يتمتّع بها في السنّة النّبويّة، وبعد انقضاء تلك المدّة الرّمزيّة تعاد تلك الصّرة من التراب إلى المكان أو الفضاء المراد بناؤه فترمي أو تعلق في مكان مرتفع مثل شجرة إن وجدت أو يحفر لها فتردم في وسط ذلك الفضاء قبل التأسيس معتقدين في ذلك على أنّهم يربطون علاقة وثيقة وطيبة مع أرواح ذلك المكان وهم يردّدون عبارات " مسلمين ليكم إذا كنتم مسلمين وإذا كنتم خلاف الله يبعث علينا بلاؤكم " وكذلك قول: "يا حباب ربي انتوما منا وحنايا منكم"، وطلب العون والتّسهيل بالخير بكلمة "نوبنا الخير سهّل علينا"، وبهذه العبارات والكلمات والممارسات لهذا الطّقوس دلالة على أنّ العلاقة بين المؤسس لهذا الفضاء دلالة على طلب التّصالح والتّودد مع الرّوح السّاكنة في هذا المجال لتظهر علامات ذلك التّودد والتّصاحب في ديناميكيّة بناء ذلك الفضاء المراد سكنه والعيش فيه.

ب. طقوس وممارسات على حدود الحصان:

تعدّ حدود الحصان في استعمالها قبل التأسيس وأثناءه وبعده من أهمّ ما يعلّق على باب الدّار وذلك حماية ووقاية من شرور العين والحسد ويربطون ذلك بعدة دلالات من بينها أنّ هذه الحدود لها صلة وثيقة بالحصان الذي يرمز له بالسّريّة والقوّة، فيقولون " الحصان هبة من ربح " وهذه مستوحاة من الأغاني الشّعبيّة والتي تعطي للحصان وحدوته قيمة رفيعة في السّريّة والأداء، وفي الدّين يربطون ذلك بقول نبيّ الله محمّد عليه أفضل الصّلوات: "الخيال معقود في نواصبيها الخير

واليمن إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسح بنواصمها للبركة وقلدوها ولا تقلدوها أوتارا" (رواه جابر رضي الله عنه)، كلّ هذا يدلّ على البركة في الخيل وجلب المنفعة على حسب أهل المنطقة فعندّ "حدوة الحصان" لها دور فعّال في جلب الخبر والبركة والسّرعَة في العمل وجلب الطّاقة الإيجابية وإبعاد الأرواح الشّرّيرة التي تكون في المكان والتّابعة من العين والحسد، وتستعمل هذه الحدوة كطقس استرضائيّ ولها عدّة طرائق وأوقات للاستعمال، من بين هذه الطّرائق المتعارف عليها في مرحلة التأسيس للفضاء السّكّنيّ لأهل منطقة الجنوب الغربيّ تترك حدوة الحصان على الأرض المراد استرضاء أرواحها لتبقى مدّة ثلاث ليالٍ متتالية أو سبعة أيّام وهذا المستحبّ، وبعد انقضاء هذه المدّة الزّمنيّة توضع "حدوة الحصان" على نار قويّة تصل أو تفوق مئة درجة، وبعدها ترمى بالماء فذلك التّصادم يعطي صوت "طشيش" وبتصادم الماء والحدوة الفولاذيّة يتصاعد الدّخان ويمثّل بخورا بالنّسبة لأهل المنطقة ويسمّى بعملية "تبخيرة". ومن أهمّ من يعمل كلّ هذا في البيت الذي يراد تمكّن ذلك الفضاء للحفاظ على السّريّة في هذه الممارسة والطّقس والمعتقد، وعلى حسب المنطقة يعدّ هذا الطّقس له دلالة فتح باب التّودد والتّأخي مع أهل المكان الأرواح السّاكنة في هذا الفضاء ومساعدتهم على مقاومة الأرواح الشّرّيرة التي تنبع من عين وحسد ولا تترك العمل يتواصل على ما يرام هكذا يكون استرضاء أهل المكان وإشارة إليهم بطلب السّند والقوّة للاستمرار دون عراقيل العين والحسد.

ج. الطقوس والممارسات على البقراج أو الرودة (الإبريق الحديدي الأسود أو العجلة السوداء):

يشكّل البقراج كما يحلو لسكّان منطقة الجنوب الغربيّ تسميته والعجلة السّوداء من الأدوات التي يمارس عليها بعض طقوس الاسترضاء، الإبريق الأسود يمثّل الأداة التي تطرد الأرواح الشّرّيرة وتنسّفها كما يقول أهل المنطقة "نفس يليق لها غير بوقراج" دلالة على الاعتقاد في هذه الأداة بأنّها حرز من العين والحسد، فإنّه يعلّق على أعمدة البناء أثناء التأسيس لهذا الفضاء السّكّنيّ، إذ تمارس عليه مجموعة من الممارسات قبل استعماله كطقس استرضاء، فإنّه يبيت في الماء والملح مدّة سبعة أيّام متتاليّة. ودلالة سبعة أيّام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسبعة أراضين وسبعة سماوات لضمان السّرعَة والارتفاع في بناء ذلك الفضاء السّكّنيّ، وبعد ذلك يتمّ تليينه بالنّار ليكتسب اللّون الأسود وبييض في داخله، ويعدّ ماء البحر أو الماء مع ملح الحيّ من أهمّ العناصر في تحضير هذا الطّقس لمكانة ذلك ودلالته على لسان أهل المنطقة "إنّ الماء والملحة الحية ترفع الحياء ويجعل كل شيء حيّاً"، وعن ذلك اللّون الأسود دلالة على ما يقوله أهل المنطقة "الحاجة الكحلة

تدفع كل كحلة"، فالأسود في الطقوس بالنسبة لأهل المنطقة يحمل معنى الدفاع، أما عن عملية تعليق هذا الإبريق يشترط أن لا يكون مغلقا وبمعنى آخر يعلق دون غطاء (مغلق) فإن تلك الفجوة في الغطاء باعتقادهم أنها باب مرور تلك الروح الشريرة لتعم قاع الإناء أو البقراج وتحول بعد غسلها بما يطهر به الإناء من ملح الحمي والماء لتخرج من فم البقراج أي التجويف الموجود على الإبريق وتتحول إلى روح طيبة تصبح طاقة إيجابية أي على حسب أهل المنطقة فهي عملية تحويل وإعادة إنتاج من روح شريرة تحمل الإيجابية وطاقة إيجابية، وهذا الحال نفسه للعجلة السوداء التي لها الدور نفسه في هذا النوع من طقوس الطاقة السلبية إلى الروح، إلا أن العجلة السوداء لا تحرق بالنار لأنها مطاطية وإنما تغسل بالماء والملح لمدة معلومة أو يقام تخييرها "بالعرعار" والكبريتة "اللتين تعرفان بأنهما أداتان لتحويل الروح الشريرة لروح إيجابية وإبعاد تلك الطاقة السلبية من العين والحسد.

ومن هنا نفهم أن للإبريق والعجلة السوداء الدور نفسه في إعادة إنتاج الروح الشريرة وتحويلها إلى روح إيجابية وهذا كله على حسب المعتقد الشائع في المنطقة، أما إذا حاولت أن تفهم المعاني والأدوار لهذين الطقوسين فإنك تصطدم بذلك التضارب بين الفعل المشاع المعبر عنه وغير المعبر عنه.

2-2 الطقوس والممارسات بعد تأسيس الفضاء السكني:

إن التصور الجماعي لأفراد المجتمع المحلي لمدينة عين الصفراء في ما بعد بناء الفضاء السكني من الناحية الأنثروبولوجية يحمل توجهات مختلفة، فمن الناحية الطقوسية يقوم على توافق الفضاء السكني واندماجه مع ممارسات مختلفة ومتصل بتملك ذلك الفضاء، فالعلاقة بين الأفراد من الناحية المادية والجانب الروحاني كالجن أو ما يعرف بمصطلح "دوك الناس" و"مالين لبلاد"، لا بدّ علينا فهم تلك العلاقة الوطيدة التي تحمل في طياتها لغة تسمى بطقوسية المكان أو طقوسية الفضاء والتي من بينها:

أ – طقوس وممارسة الإعلام بتملك الفضاء السكني (طقوس التذكير):

إن التوافق مع لفظة سكان الدار أو "مالين الدار" تحمل في معناها مجموعة من الدلالات التي تفرض على الدخيل أو الفرد الجديد على الفضاء السكني الجديد أن يستعمل مجموعة من هذه الممارسات، فإن أهل مدينة عين الصفراء يحملون في هذا النوع من طقوس الاسترضاء "عملية الإعلام بالحضور والرغبة في التعايش مع "مالين الدار" بالحضور، وذلك برمزية هذه الطقوس،

فإنّ هذه الممارسة (طقس التذكير) تقوم أساساً على الإطعام في هذا الفضاء السكّني الجديد أو في مكان السكّن القديم بأطباق من التقلّيد بطعم الحلوى (طمينة أو الحلويات التقلّيدية زريزي أو تدبية)، وذلك دلالة على حسن التّيّة الطّيبة على تقاسم ذلك الفضاء السكّني مع الأرواح المألّكة له أو الأشباح والجنّ السّاكنة أصلاً قبل تأسيس ذلك الفضاء، وأمّا رمزيّة الطّعم الحلو فتدلّ على إعطاء صفة الميلاّد الجديد لعلاقة تقاسم تملّك الفضاء بين الإنسان والروح السّاكنة في ذلك الفضاء وأنّ عمليّة رشّ الفضاء السكّني " بالملح الحي " و " الفاسوخ " استرضاء لنمالين الدّار فإنّ تلك العمليّة تحمل مجموعة من عبارات وأقوال الاسترضاء من بينها " يا مالين دار انتوما لينا وحنايا ليكم " دلالة على الاعتراف بالودّ قبل الدّخول.

وكذلك عبارة " يا مالين الدار نيتنا نعيش معاكم بأمان " دليل على حسن نيّة التّوافق والتّعايش في الفضاء نفسه وكذلك عبارة " دخلنا عليك بالصفاء والنيّة اعطونا لمان " دليل على التّخوّف من ردّة فعل أهل المكان أي الروح الرّاكنة في المكان، وكلّ هذه العبارات تشير إلى الرّغبة بفرض الاحترام والسّلام والأمان للأخر الرّوحانيّ، وحتّى عمليّة البخور بالطّاس الأسود دلالة على طرد الأرواح الشّريرة والتخلّص منها، وعمليّة الرّشّ بالحناء الممزوجة بالملح في كلّ غرفة من ذلك الفضاء المسكون تحمل معها معنى تملّك الفضاء والقدوم للعيش فيه في أقرب وقت ممكن، فهذه الطّقوس الّتي تحمل معنى ودلالة التّعريف وطلب البركة والتّعايش مع " مالين الدّار " فعلى الفرد السّاكن معه عدم إيذاء هذه الرّوح بأيّ شكل من الأشكال، إذن هذا النّوع من الطّقوس بمثابة جسر تعارف بين الإنسان والروح (الأشباح) السّاكنة في هذا الفضاء السكّني على حسب المعتقد الموجود في منطقة عين الصّفراء.

ب - الطّقوس والممارسة على العتبة:

على غرار سكّان المنطقة بالخصوص والمجتمع المغاربيّ بالعموم فإنّ قداسة العتبة لها درجة كبيرة في الفضاء السكّني لما تحمله من عوامل الاسترضاء لأهل السّاكنة من الإنس والجنّ، وكما يقول المثل الشّعبيّ " البتاي بيبي ومول دار يعرف وين يدير عتبة باب الدّار "، فالعتبة بالنّسبة لأهل المنطقة كواجهة لجلب البركة أو النّحس الأبديّ للفضاء السكّني، فهي بمثابة التّقديس الأزليّ للمسكن فمصطلح العتبة له عدّة دلالات يرمز لها أحياناً بالمرأة ويرمز لها أحياناً بالدّار ككلّ، ومن هذا المنطلق فإنّ العتبة لا تشكّل بالضرّورة دائماً السّعادة وإنّما لها دلالة التّعاسة كما يقال " بدّل عتبة دارك تصيب راحتك " وعبارة " عتبة حرشة (عتبة منحوسة)، ولهذا اختيار عتبة المنزل تحمل

وقتا أطول لما رمز له من تلك القوّة الروحانيّة في تملّك الفضاء السكّنيّ، وبعد الاختيار يكون على السّاكّن في ذلك الفضاء ممارسة مجموعة من الطّقوس الّتي تبسط على عتبة الدّار.

إنّ عمليّة الدّبح على العتبة لها دلالة طقوسيّة أكبر من الدّلالة الإنسانيّة لما تحمله من معان غير معبّر عنها في الواقع المعاش، فيقوم السّاكّن الجديد بالدّبح على العتبة ويختار أضحيتته عليها من المواشي أو الطّيور ليس الغرض منه نوع الأضحية بقدر ما يكون الغرض الدّم الذي يسيل على تلك العتبة فتراهم يقولون "ليوم سيّلت الدّم على عتبة الدّار"، لتفهم أنّ الرّوح السّاكّنة ترضى بالدّماء السّائلة على العتبة، إنّ تلك الأضحية تقبل وتذبح بتسمية مول الدّار واسم الله ليتمّ النّحر، وذلك الدّم تطلّخ به العتبة لمُدّة حتّى ينشف الدّم وبعد يوم أو يومين يدعو بعض الضّيوف ليأكلوا من تلك الأضحية بنيّة على حسب أهل المنطقة الإطعام والصّدقة على النّعمة، ودلالة ذلك الدّم على أنّه يطرد الرّوح الشّريرة النّابعة من الحسد والعين، فالعتبة تشكّل حرمة أهل الدّار إذا انتهكت فهي تجسيد لجسد المرأة بعبارة أهل المنطقة "عتبة باب الدّار هي المرأة إذا فنيها فيها صلحت وتفتّحت عليك ببيان الخير".

ففي الوهم الشّعبيّ دائما يعبّر عن العتبة بالرزق والخير فتسمع كثيرا عبارة "الله يفتح عليك" "بيان الخير من عتبة دارك" كلّها عبارات تحمل دلالة الخير والبركة المرتبطة بالعتبة وباحتساب أنّ للعتبة لها طقوسا عديدة تمارس عليها لا يمكن سردها في فقرة أو فقرتين وإنّما بعد ما أخذناه من هذه الخرجات الميدانيّة، لنعدّ العتبة فضاء يمارس عليه هذه الطّقوس كفضاء مركزيّ من هرميّة الفضاء السكّنيّ، وأكثر ما تمارس عليها طقوس الاسترضاء وأولية التّعاش مع الآخر الروحانيّ.

ج- طقوس وممارسة الرش (الملح الحي والحناء) على محيط داخلي للفضاء المسكون:

بعد عمليّة الانتهاء من طقوس الممارسة على عتبة "باب الدّار" نصل إلى مرحلة الانتقال إلى الفضاءات الّتي يحتوي عليها الفضاء المسكون مباشرة ألا وهي رشّ الغرف بالحناء والملح الأبيض الحيّ، مستعملا صاحب الدار عبارات استرضائيّة، فإنّه بعد عمليّة الخرجات الميدانيّة أتضح أنّ العنصر النّسويّ هو المسؤول الأوّل في هذه العمليّة فتبرز مجموعة من العبارات تحمل دلالة ورمزيّة تكشف عدّة خبايا تركيبية الّتي يعيش فيها المجتمع المحليّ للمنطقة المدروسة، وتبرز كذلك تلك الصّلة والعلاقة الّتي تطبع على ذهنيّة الأفراد بتملّكهم للفضاء المسكون، فتجدهم يردّدون مجموعة من العبارات من بينها "يا مالين الدّار انتوما متّا وحنايا منكم" و "يا مالين الدّار قبلو علينا

ما تؤذونا ما تؤذوكم "مع مواصلة طقس "الرّش"، كلّ هذا يحمل دلالة ورمزيّة مفادها التّخوّف من زّدة فعل قبل العيش مع الأرواح المألّكة للفضاء المسكون وأثناءه وبعده، والموادّ المستعملة لهذه الطّقوس تحمل دلالة "الملح الحيّ" بالنّسبة لأهل المنطقة المدروسة يحمل رمزيّة التّوافق والفرح واستقبال حياة جديدة.

وكما ذكرنا سالفا فإنّ الملح الحيّ يطرد الأرواح الشّريرة وكما يقول أهل المنطقة "الملح سلاح حتّى مع الأعداء من الإنسان والجن"، ويعدّ بالنّسبة للذهنيات المستعملة على أنّه صلة ربط بين الإنسان والإنسان، والإنسان والأرواح الشّريرة أو الطّيّبة، فقطس "الرّش" على أعتاب غرف الفضاء المسكون والأروقة وحتّى زوايا الغرف دلالتها أنّها تحمل معها الرّين لإعلام أهل الدّار المتمثّل في الأرواح السّاكنة في المكان بالقدوم وتقاسم تملكّ الفضاء المسكون، إنّ "الحنّاء" في هذا الطّقوس تمثّل دلالة الفرحة والعبور من حالة إلى حالة أحسن، وبعد الانتهاء من عمليّة "الرّش" يبقى ذلك الملح الحيّ والحنّاء مدّة يوم أو يومين وبعدها تدخل عمليّة الغسل أو ما يعرف بمصطلح "تسياق" والذي يحمل دلالة غسل الخطايا، ويكون باستعمال الملح الحيّ مع الماء الصّافي وذلك لمحو خطايا الأرواح السّاكنة في المكان وإعادة إنتاج الأرواح الطّيّبة والقضاء على الرّوح الشّريرة وإحياء الطّاقة الإيجابيّة في الفضاء المسكون، وهكذا تتكيّف هذه الأرواح مع الأفراد الذين أسسوا هذا الفضاء المسكون وبعبارة يقولها أهل المنطقة "كيما تكون أنت تكون دارك" فهذا الطّقوس يعدّ من الطّقوس الاسترضائية لتملّكّ الفضاء المسكون في هذه المنطقة، فالفضاء المسكون يمرّ قبل تعميمه أو تملكه بمجموعة من الممارسات ذكرناها سالفا من ما قبل التأسيس للفضاء وبعد تأسيس هذا الفضاء المسكون موضّحين بعضا من عمليّة الخرجات الميدانية المتكززة على عدّة عينات لنبرز مجموعة من الطّقوس التي تمارس على هذا النّوع من الفضاءات السّكنيّة، وهيمنة الطّقوس الاسترضائية على الواقع الإميريقي لمجتمع الجنوب الغربيّ للجزائر، وقوّة استعمالها رغم عدم التّعبير عنها بشكل مباشر في الواقع الرّسيميّ، فهي في هذه الدّراسة قد تمّ انتزاعها من الواقع وتمّ تحليلها بعمليّة الوصف الإنتوغرافي ليربّز لنا أنّ هذه الطّقوس الاسترضائية في هذا النّوع من الفضاء المسكون مبنية على أمرين مهمّين هما:

إنّ الطّقوس تفرض على ممارسيها، إمّا كيفية ممارستها فالممارس لهذه الطّقوس هو العاني الأبدّي في بلورة طرائق استعمال هذا النّوع من الطّقوس الذي بني على واقع معاش.

خاتمة:

إنّ استقراء الواقع الاجتماعيّ لهذا المجتمع من النّاحية الطّقوسية وممارستها من الأفراد وكذا الوصف الدّقيق للأحداث أو الممارسات بيّن ما يلي :

- إنّ التّراكمات العديدة من امتزاج عدد هائل من الطّقوس التي يعايشها المجتمع المحليّ للمنطقة المدروسة جعل هذا المجتمع يمارسها بشكل اعتياديّ وطبيعيّ في مجال الفضاء السّكني رغم قدامية هذه الممارسات بالنّسبة للعصر الذي نعايشه، إنّ فكرة الرّمانية والمكانية لها دورها كعامل متغيّر ومثبت لهذا النّوع من الطّقوس التي رغم تفكّكها إلا أنّ العامل الرّمزي لم يؤثّر بشكل كبير في متغيّرات ممارستها، إلا أنّ المتغيّر الحقيقيّ يكمن في الأدوات المستعملة لهذا النّوع من الطّقوس واستعمالها في بناء الفضاء السّكني للمجتمع المحليّ لدراستنا.
- تعدّ الأدوات (البقراج، حدوة الحصان و.....) والعديد من الأدوات المذكورة في دراستنا طقوس عبور لممارسة نوع من أنواع هذه الطّقوس المسكوت عنها والمعتبر عنها في الواقع الخفيّ للمجتمعات ككل، ومجتمع المنطقة المدروسة بالخصوص.

إنّ هذه الدّراسة قد قمنا بها وركّزنا على الجانب الميداني لنبرز دور الدّراسات الأنثروبولوجية في المجال الميداني موضّحين كذلك على أنّ المجتمع رغم كل تلك المتغيّرات الحضارية وتقدّمها إلا أنّه مازال ولا يزال متشبّثا بالثقافة التي لا تزول رغم كلّ عوامل التّغيّر، فإنّ الطّقوس الاسترضائية كنوع من أنواع الطّقوس لازال صيتها باق رغم تغيّر الرّمان والمكان ونوعية الفضاء الممارس عليه، ورغم أنّ هذه الدّراسة التي تعدّ بسيطة وثمانية في الوقت نفسه لما تحمله من التّمثّلات في وصف الواقع الإمبريقي للمجتمع المحليّ.

قائمة المصادر والمراجع:

- بن الحاج جلّول لزرقي. (2015, 03, 15). قراءة أنثروبولوجية حول ظاهرة "الطعم" أو "العودة"، وعدة سيدي أحمد بن عودة أنموذجا. *الحوار الثقافي*، الصفحات 156-162.
- بومدين، سليمان. (2007). *تصورات المغاربي لحرمة داره انسانيات*. pp. 49-66 ,
- جيمس جورج فريزر. (2014). *الغصن الذهبي دراسة في سحر و الدين*. (نايف الخوص، المترجمون) دمشق: دار الفرقد.
- دياب فوزية. (1980). *القيم والعادات الاجتماعية مع البحث الميداني لبعض العادات الاجتماعية*. بيروت لبنان: دار النهضة العربية للطبع والنشر.
- رشيق حسن. (2010). *سيدي شمهورش*. تأليف رشيق حسن، الطّقوس والسياسي في الاطلس الكبير. المغرب.

نور الدين طوالي. (1980). *الدين وطقوس وتغيرات. تأليف الدين وطقوس وتغيرات*. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات الجزائرية.

bachelard, g. (1971). *approches de rationalisme*. Dans j.-m. paise, *bulletin de l'association guillame budé* (pp. 111-124). Paris: gallica.

boughali, m. (1974). *La representation de l'espace chaz le marocain illetre*. casa blanca: afrique orient.

chateau, C. (1981). *La question urbaine*. F- Paris: Francois Mapero.

raymond, L. (1984). *la forme et le sens dans la societé*. Paris: librairie des Meriens.